الفصل الخامس

ظلال المعاني في سورة القصص

(دراسة على مستوى النص)

توطئة :

إن ما قدمه لنا عبد القاهر الجرجاني من دراسات للنظم والتعليق في دلائل الإعجاز يعد إشارات ذكية إلى المنهج الذي يجب على النحاة أن يتبعوه في دراستهم للنحو، حيث " عنى عبد القاهر بشرح دلالات الألفاظ واختلافها باختلاف مواقعها في الجمل، كما وسع دائرة النحو ليشمل علم المعاني وبعض المحسنات البديعية والبيانية " [1] " وقد ركز في دراسته على الاهتمام بما بين السطح والمحتوى من علاقات، وأن مواطن الجمال والقبح يتركزان في علاقة الأجزاء بعضها ببعض، وعلاقة كل جزء بالكل " [2]، " إلا أنه في تدليله على نظريته اقتصر على الأبيات المفردة المعزولة عن سياقها النصي، ولم يتناول نصّاً مكتملاً " [3]، وقد عنيت دراسات علماء المعاني بمعاني التراكيب والجمل، في حين عنيت دراسات النحويين بالتحليل ومعاني الأبواب الفرعية التي في داخل الجمل، وقد تحدث علماء التفسير في أسباب النزول، وأن القرآن يفسر بعضه بعضاً فيما سُمِّيَ بالتناص، " ولقد كان البلاغيون عند اعترافهم بفكرة المقام متقدمين ألف سنة تقريباً على زمانهم لأن الاعتراف بفكرتي المقام والمقال باعتبارهما أساسين متميزين من أسس تحليل المعني يعتبر الآن في الغرب من الكشوف التي جاءت نتيجة لمغامرات العقل المعاصر في دراسة اللغة " [4]، "والأسلوبية علم يدرس اللغة ضمن نظام الخطاب، وإن كان موضوعها قد تشعب إلى مستويات عدة، وأصبح لها أهداف واتجاهات متنوعة واختلطت بعلوم أخرى لا تخص المجال اللساني إلا أنها أصبحت هي صلة اللسانيات بالأدب ونقده، وبها ننتقل من دراسة اللغة جملة إلى دراسة اللغة نصّاً " [5] ودمج كل هذه الأفكار مجتمعة يعنى ما يسمي في الدرس الحديث نحو النص، وهو " نمط من التحليل ذو وسائل بحثية مركبة تمتد قدرتها التشخيصية إلى مستوى ما وراء الجملة بالإضافة إلى فحصها لعلاقة المكونات التركيبية داخل الجملة، وتشمل علاقات ما وراء الجملة مستويات ذات طابع تدريجي يبدأ من علاقات ما بين الجمل، ثم الفقرة، ثم النص

---

(1) النقد الأدبي الحديث ، لمحمد غنيمي هلال 276 .
(2) الأسس الجمالية في النقد العربي (عرض وتفسير ومقارنة) للدكتور/ عز الدين إسماعيل 199 .
(3) منهج في التحليل النصى للقصيدة (تنظير وتطبيق) للدكتور/ محمد حماسة عبد اللطيف، مجلة فصُول، المجلد الخامس عشر، العدد الثاني 115/1، 1996 .
(4) اللغة العربية معناها ومبناها ، للدكتور/ تمام حسان 337 .
(5) الأسلوبية وتحليل الخطاب، منذر عياش 69 .

أو الخطاب بتمامه " [1]، " والنقلة من نحو الجملة إلى نحو النص ليست مجرد نقلة حجمية من الجملة إلى النص وإنما أيضاً نقلة في المنهج وأدواته وإجراءاته وأهدافه ، بحيث إذا كانت الجملة وحدة نحوية فإن النص ليس وحدة نحوية أوسع وإنما هو وحدة من نوع مختلف ، وحدة دلالية ، الوحدة التي لها معنى في سياق هذه الوحدة الدلالية تتحقق أو تتجسد في شكل جمل ، وهذا يفسر علاقة النص بالجملة "[2].

إن نحو النص يتناول كل أشكال الأبنية وأنواع السياقات ومستويات اللغة، ودرجات الربط النحوي والتماسك الدلالي[3]، وهو يختلف عن الجملة اختلافاً بيناً، حيث يحدد نحو الجملة مجموعة من القواعد للدراسة محاولاً إثباتها من خلال النماذج التي يمكن أن تصنع من أجل ذلك، أما نحو النص فيدرس النص المنجز فعلاً من حيث هو بنية كلية موضوعة في مقام ما أو سياق ما لاستخلاص القواعد منه لا من خارجه، ولهذا فقضيته الكبرى هي تحديد القواعد التي تعترف للنص بنصيته، ولا شك أن بعض الموضوعات والقضايا تشترك بين نحو الجملة ونحو النص غير أن التطبيق سوف يختلف وكذلك النتائج[4].

المعنى وظل المعنى :

لابد أن يكون المعنى هو الهدف الأخص لنحو النص " لأن كل دراسة لغوية ــ لا في العربية الفصحى فقط بل في كل لغة من لغات العالم – لابد أن يكون موضوعها الأول والأخير هو المعنى وكيفية ارتباطه بأشكال التعبير المختلفة، فالارتباط بين الشكل والوظيفة هو اللغة وهو العرف وهو صلة المبني بالمعنى " [5]، وللوصول إلى المعنى في صورته الشاملة لابد أن نستخدم الطرق التحليلية التي تقدمها لنا فروع الدراسات اللغوية المختلفة من صوتيات وصرف ونحو ومعجم والحقائق التي نصل إليها بواسطة التحليل على هذه المستويات حقائق جزئية بالنسبة إلى المعنى الدلالي، فوضوح معاني المفردات لا يكشف عن المعنى الحرفي الذي يُسمي ظاهر النص أو معنى المقال لأن

---

(1) العربية من نحو الجملة إلى نحو النص، للدكتور/ سعد مصلوح، ص 407 .
(2) البديع بين البلاغة العربية، واللسانيات النصية، جميل عبد المجيد 68 .
(3) علم لغة النص، للدكتور/ سعيد حسن بحيري 143 .
(4) نحو النص (اتجاه جديد في دراسة النحو العربي) للدكتور/ أحمد عفيفي، صحيفة دار العلوم، العدد 16 ديسمبر 2000، ص302 .
(5) اللغة العربية معناها ومبناها، للدكتور/ تمام حسان 9 .

التعامل حينئذ يكون مع المفردات لا مع النص كله، وانفراد العلاقات بين المفردات ومعانيها يجعل الأمر بحاجة إلى معنى المقام أو المعنى الاجتماعي الذي هو شرط لاكتمال المعنى الدلالي الأكبر، ومعنى هذا أننا حين نفرغ من تحليل الوظائف على مستوى الصوتيات والصرف والنحو ومن تحليل العلاقات بين المفردات ومعانيها على مستوى المعجم لا نستطيع أن ندعي أننا وصلنا إلى فهم المعنى الدلالي لأن الوصول إلى هذا المعنى يتطلب فوق كل ما تقدم ملاحظة العنصر الاجتماعي أو المقام، فهو ضروري جداً لفهم المعنى الدلالي .

ومعنى هذا أن المعنى الحرفي للمفردات غير كاف لفهم ما قيل لأنه قاصر عن إبداء الكثير من القرائن التي تدخل في تكوين المقام، وإن الكثير من نصوص التراث العربي قد جاء غامضاً لأن الذين رووا هذه النصوص لم يعنوا بإيراد وصف كاف للمقامات التي أحاطت بها، ومن ثم ينبغي أن نبذل الجهد مضاعفاً عند التصدي لشرح هذه النصوص حتى نستطيع إعادة بناء المقام، ذلك أن " المعنى لا يستدل عليه بالألفاظ فحسب وإنما تتعدد وسائل الدلالة عليه بحيث تشمل الأحداث والمواقف والانطباعات وما يكون من تجريدات ذهنية تحدث عند إدراك المعنى بأي وسيلة مما سبق ".

والمعنى ثلاثة أنواع : معنى معجمي تدل عليه الكلمة المفردة كما في المعاجم، ومعنى وظيفي تكشف عنه المباني التحليلية للغة، أي عندما تقع الكلمة موقع الفاعل وتؤدي وظيفته في الكلام تكون الفاعلية هي المعنى الوظيفي لهذه الكلمة وكذا إذا وقعت الكلمة موقع المفعول به، ثم المعنى الدلالي أو المقامي وهو المعنى الذي لا يقف عند تحليل تركيب المقال أو النص ولا عند معاني كلماته المفردة وإنما يتعدى ذلك إلى دور المقام في تحليل المعنى، أما من ناحية الإدراك فينقسم المعنى إلى ثلاثة أنواع أخر[1]: الأول عرفي والثاني ذهني والأخير انطباعي، أما العرفي فهو ما تدل عليه العناصر اللغوية من الأدوات والصيغ الصرفية والأسماء والأفعال ومفردات المعجم وصور الجمل المختلفة وكل ما يشتمل عليه العرف من العناصر، وأما الذهني فهو الذي يعتمد على الاستنباط ويلخصه لفظ (إذن) والمعنى الانطباعي هو الذي يعتمد على رد الفعل باعتبار ما يثيره في النفس من انفعال، وليس من شأنه أن يتوقف على عرف أو على إدراك ذهني وإنما يتوقف على رد الفعل المباشر .

---

(1) انظر: البيان في روائع القرآن، للدكتور/ تمام حسان 426/1 .

ويستدل على المعنى العرفي في عمومه بواسطة سياقين: سياق النص، وسياق الموقف (المقام) أما المقصود بسياق النص فهو الجانب القولي بما فيه من عناصر التركيب وما ينتظم به من تصنيف وتأليف، وعلاقات، وقرائن، ومعاني مفردات، وأما المقصود بالموقف فهو ما يصاحب المنطوق من عناصر تداولية توصف بأنها عناصر الموقف، يسميها المفسرون (أسباب النزول)، ويسميها شراح النصوص (المقام)، وهو عظيم الفائدة في التوصل للمعنى الدلالي فقد نجد النص واضح الصياغة ولا يتحقق فهمه إلا بعد التقديم له بذكر الظروف والملابسات التي دعت لنظمه ومن عناصر الموقف ما إذا كان الأداء لغوياً فقط أو كان مصحوباً بجانب حركي، ومن عناصر الموقف مستقبل النص فرداً كان أو جماعة وظروف قوله وما تركه من أثر في النفوس، وعلاقة المبدع بالمتلقي[1].

وبعد إدراك المعنى من خلال تحليل الوظائف في النص على مستوى الأصوات والصرف والنحو، وما يصاحب المنطوق من عناصر الموقف عندئذ نستطيع أن نفهم العلاقة بين المعنى وظل المعنى، ذلك أنه لا يمكن فهم ظل المعنى إلا بعد فهم المعنى الذي هو ظله فهماً مكتمل الجوانب على جميع المستويات .

والريادة الحقيقية في التفريق بين المعنى وظل المعنى يمكن نسبتها إلى عبد القاهر الجرجاني وذلك لأنه قدم في عصور مبكرة لمصطلح أصبح مألوفاً في الدراسات اللغوية والنقدية في القرن العشرين وهو معنى المعنى، يقول الجرجاني " هنا عبارة مختصرة وهي أن تقول المعنى ومعنى المعنى تعنى بالمعني المفهوم من ظاهر اللفظ والذي تصل إليه بغير واسطة وبمعنى المعنى أن تعقل من اللفظ معنى ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر"[2]، وقد قسم الجرجاني الكلام على ضربين: ضرب نصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده كأن نخبر عن زيد مثلاً بالخروج (على الحقيقة) فنقول خرج زيد، وضرب آخر لا نصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده.

ولكن يدل اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة ثم نجد لذلك المعنى دلالة ثانية نصل بها إلى الغرض ومدار هذا الأمر – عنده – على الكناية والاستعارة والتمثيل ، ومَثَّل عبد القاهر لمعنى المعنى بقول العرب: " فلان كثير رماد القدر " وفيه

---

(1) انظر: ظلال المعاني في القرآن الكريم للدكتور/ تمام حسان (2) .
(2) دلائل الإعجاز، ص 177 .

لا يُقصد المعنى المأخوذ من ظاهر اللفظ، ولكن يدل اللفظ على معناه الـذي يوجبـه ظاهره (المعنى السطحي) أو المعنى غيـر المقصود، ثم يتوصل السامع أو القارئ من ذلك المعنى على سبيل الاستدلال إلى معنى ثانٍ هو المقصود[1]، وبين المعنيين غـير المقـصود والمقصود سلسلة أو طائفة من المعاني يُتوصل من أحدها إلى الآخر لنصل في النهايـة إلى المعنى المقصود.

فعندما نقول فلان كثير الرماد أو كثير رماد القدر فإن ذلك يدلنا على طائفة مـن المعاني نتوصل من خلالها إلى المعنى المقصود، فكثرة الرماد تعني إيقاد قدر كـبير مـن الحطب تحت القدور، وقد تعنى أن الزوجة كسول لا تقوم بتنظيف الموقد أولاً بأول مما يؤدي إلى تراكم الرماد تحت القدر أو تدل على إسراف الزوجة في استخدام كميـات كبيرة من الحطب لإيقاد القدر أو على عدم خبرتها في عملية الإيقاد هذه، وقد تعنى أن عملية الطهي لا تتوقف مما لا يعطي فرصة للزوجة لتقوم بتنظيف الموقد، وهو يعـنى أن هذه الأسرة تقوم بإعداد الطعام كثيراً مما يدل على كرم ضيافة هذه الأسـرة وهكـذا توصلنا إلى المعنى المقصود مروراً بعدة معان يمثل كل واحد منها ظلاً للمعـنى الـسابق عليه.

والمعنى وظل المعنى هو ما عناه حازم القرطاجنى بالمعاني الأُول والمعاني الثواني حـين قال في منهاج البلغاء " ولنسم المعاني التي تكون من الكلام ونفس غرض الشعر المعـاني الأُوَل، ولنسم المعاني التي ليست من الكلام ونفس الغـرض ولكنـها أمثلـة لتلـك واستدلالات عليها أو غير ذلك لا موجب لإيرادها في الكلام غير محاكاة المعاني الأول بها أو ملاحظة وجه يجمع بينها على بعض الهيئات التي تتلاقى عليها المعاني ويصار مـن بعضها إلى بعض المعاني الثواني "[2].

وإذا نظرنا إلى موقف السكاكي من البيان وجدنـا أن موقفه من الحقيقة والمجاز لا يختلف في جوهره عن موقف عبد القاهر، يقول السكاكي: " الحقيقـة هـي الكلمـة المستعملة فيما هي موضوعة له من غير تأويل في الوضع "[3]، أما بالنـسبة لاسـتخدام اللفظ على المجاز فهو يتفق أيضاً مع الجرجاني في أن الدلالة المجازية هي دلالة عقلية يتم التوصل إليها عن طريق القرائن داخل النظام أو النسق اللغوي، فبينما يقوم الاستخدام

---

(1) انظر: دلائل الإعجاز، ص 177 .
(2) منهاج البلغاء وسراج الأدباء، لحازم القرطاجنى 23 .
(3) مفتاح العلوم لأبي يعقوب السكاكي 358 .

على الحقيقة على المعنى المعجمي للفظ، دون قرينة، يعتمد الاستخدام المجازي على القرائن داخل النص[1]، والواقع أن أفكار البلاغيين العرب عن المعنى ومعنى المعنى أو المعاني الأول والمعاني الثواني لا تختلف في جوهرها عن تعدد الدلالة أو تعدد المدلولات للدال في الدرس الحديث الذي يعرف اللغة بأنها نظام من العلامات، والعلامة هي اتحاد بين شكل يدل يسميه سوسير الدال وفكرة يدل عليها تسمي المدلول[2]، وإذا عدنا إلى قول العرب " فلان كثير رماد القدر " وبعد القراءة الأولى التي تمثل حقيقة ما وضع الألفاظ من أجله، تبدأ عمليات الاستدلال بالابتعاد أولاً عن قراءة المواضعة أو القراءة الحقيقية، ثم بتحول مدلول كل قراءة منها إلى دال على مدلول آخر هو القراءة التالية، وبالقراءة الأخيرة فقط نكون قد قطعنا شوط الابتعاد عن استخدام اللفظ على الحقيقة حتى نهايته ووصلنا إلى القراءة المجازية أو ما يسمي معنى المعنى، وهي عملية تحول المدلول إلى دال في عرف الحداثيين، وعلى الرغم من أن عبد القاهر لم يستخدم هذا التعبير الحداثي فإن المفهوم واحد إلى حد التطابق[3] .

والحق أن عبد القاهر والسكاكي والقرطاجنى لم يتركوا فرصة في مؤلفاتهم دون أن يشيروا إلى خطأ التوقف عند الدلالة الظاهرة للفظ وضرورة الحفر عند جذور اللغة للوصول إلى ما وراء المعنى الظاهر أو ما تحته[4]، ولكن يؤخذ عليهم أنهم درسوا ظل المعنى على مستوى البلاغة فقط ولم يدرسوه على مستوى النص أو في ضوء العلاقة النحوية والقرينة، فمن ظلال المعاني على مستوى النص السؤال الوارد على دعوى سابقة نحو قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنسٌ وَلا جَانٌّ﴾ [5]، السؤال هو: كيف ذلك واليوم يوم حساب ؟ والجواب " يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام "[6] ومن ظلال المعاني على مستوى النص أيضاً دلالة الاستفهام الإنكاري على الإثبات إذا كان مبدوءا بحرف النفي نحو قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى﴾ [7]،

---

(1) المرايا المقعرة، للدكتور/ عبد العزيز حمودة 301 .
(2) انظر: فرديناندي سوسير (أصول اللسانيات وعلم العلامات)، لجوناثان كللر، ترجمة الدكتور/ عز الدين إسماعيل 72 .
(3) انظر: المرايا المقعرة، للدكتور/ عبد العزيز حمودة 299 .
(4) انظر: المرايا المقعرة 395 .
(5) الرحمن 39 .
(6) الرحمن 41 .
(7) الضحي 6 .

أي لقد وجدك ، وعلى النفي أو النهي إذا كان غير مبدوء بحرف النفي ، نحو قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً﴾ [1]، أي لست أبتغي غيره، وعلى مستوى النص قد يكون التركيب استفهاماً وظل المعنى تعجباً ، نحو قول الله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً﴾ [2] . فالمقصود هنا هو معنى التعجب لأن الله سبحانه وتعالى لا يسأل عباده عن أمر هو أعلم به، ومن ظلال المعاني في ضوء العلاقة النحوية والقرينة معنى الجملة ويشمل أسلوب الجملة من خبر وإنشاء وهذا المعنى هو الذي تكون له ظلال فقد يكون مبني الجملة على صورة الخبر ولكن معناها الشرط كما في قوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ [3]، أي من أراد أن يتم الرضاعة فعلي الوالدات أن يرضعن أولادهن [4].

ظل المعني وظل النص :

ينبغي أن نفرق بين نوعين من الظلال الأول يمثل تعدد الدلالة أو مراوغة المدلول أو تعدد المدلول للدال، وهو ظل المعنى، الذي نصل إليه لا بدلالة اللفظ وحده، ولكن بدلالة اللفظ على معنى المواضعة ثم نجد لذلك المعنى دلالة أخرى نصل بها إلى الغرض الحقيقي من وراء الصياغة، والثاني يمثل تعدد الدال للمدلول وهو ما يعرف بظل النص أو النص الظل أو المزاح وهو نص غير منجز بالفعل، هذا النص قابع تماماً في الذهن، ويكون في مرحلة ما قبل النص موازياً تماماً للنص المُنْجَز وقد عبر عن ذلك امرؤ القيس الذي لقب بالذائد حين قال: [المتقارب] [5]:

أذود القوافي عني ذيادا ... ذياد غلام غوى جرادا
فلما كثرن وأعيينني ... تنقيت منهن عشراً جيادا
فأعزل مرجانها جانباً ... وآخذ من درها المستجادا

---

(1) الأنعام 114 .
(2) الإنسان 1 .
(3) البقرة 233 .
(4) انظر: ظلال المعاني في القرآن الكريم ، للدكتور / تمام حسان 2 : 6 .
(5) انظر: المؤتلف والمختلف ، للآمدي 6 .

فالمبدع في مرحلة ما قبل النص أو القَبْلية – كما يسميها نقاد الأدب – تتوارد في ذهنه طوائف من القوافي والألفاظ المعبرة عن المعاني، فينتقي منها الأجود والأصلح لتأدية المعنى المطلوب، ويعزل ما دون ذلك مكوناً نصاً مزاحاً يوازي النص المنجز وإذا عمد مبدع آخر إلى التجربة ذاتها فإنه يعبر عن المعنى بنص يعد ظلا لنص المبدع الأول، وهذا النص بدوره له ظل في مرحلة القبلية وبذلك يكون لدينا مجموعة نصوص " متوازية أو متعامدة على النص المكتوب مشكلة فيما بينها نصوصاً ظلالية متغايرة حسب المتلقي بحيث يتحول المبدع من مبدع أحادى إلى حافز إبداعي لنصوص قد تمت لنصه الأصلي بصلة " [1]، " وزمنية تحول النص المكتوب إلى نص حافز زمنية مصاحبة لعملية التلقي التي تتجاوز إلى تشكيل النص الظل الذي يغدو بدوره نصّاً حافزاً للآخر"[2]، أي أن ظل المعنى يعبر عن استدلال مجموعة من المعاني لتركيب واحد، في حين يعبر ظل النص عن تعدد مجموعة من الألفاظ والتراكيب لمعنى واحد أو تجربة واحدة فالأول هو تعدد المدلول للدال والثاني هو تعدد الدال للمدلول، والأول من عمل المتلقي، والثاني من عمل المبدع[3].

ولذلك فإن استخدام المعاني ذات الظلال في اللغة يخلق نوعاً من المشاركة بين المبدع والمتلقي حيث يترك المبدع المجال للمتلقي لفهم المعنى؛ وفي ذلك يجد المتلقي عناءً في البحث عن المعنى المقصود.

وكلما عاني القارئ في طلب المعنى كان أفيد له وأمتع "فالمعنى الجيد ليس هو المعنى المباشر، بل ذلك المعنى الذي يحوجك أو يضْطرك للتفكير فيه، المعنى الجيد هو الذي يتحدى الفهم السريع بامتناعه على القارئ أو المتلقي"[4] " الذي يفك شفرة الصورة اللغوية المجازية ليصل إلى معنى معناه الظاهري أو المعنى الثاني الذي يكمن أو يحتجب خلف القراءة السطحية " [5].

---

(1) موت النص (النص والنص المضاد والنص الظل)، للدكتور محمد أبو الفضل بدران، مجلة كلية الآداب بقنا، العدد الخامس الجزء الأول، 1995، ص 17 .

(2) موت النص، للدكتور محمد أبو الفضل بدران، ص 21 .

(3) يكون ظل النص من عمل المبدع فقط إذا كان المتلقي سلبياً، أما إذا كان المتلقي ناقداً أو مبدعاً فإنه يكون بمعاونة النص المكتوب نصا متوازيا، وعندئذ يكون ظل النص من عمل المبدع والمتلقي كليهما .

(4) المرايا المقعرة 270 .

(5) المرايا المقعرة 398 .

ظلال المعاني في سورة القصص :

أولاً : دلالة اللفظ المفرد على ظل المعنى :

قال تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ (القصص 12) .

لفظ (المراضع) دل على أنه عرض عليه جملة من المرضعات[1].

قال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَةَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (القصص 27) .

الظاهر في لفظ (من عندك) أن معناه من تجاهك أو من قِبلك، والمعنى أنه تبرع منك وتفضل لا اشتراط .

ولفظة (أشق) تدل على أشكال المشقة المتمثلة في إلزام أي الأجلين، أو المعاشرة، والمناقشة في مراعاة الأوقات وتكليف الرعاة أشياء من المهمات خارجة عن الشرط [2] .

قال تعالى: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ (القصص 34) .

ظاهر المعنى في لفظ (يصدقني) أن يقول له صدقت، وهو معنى سطحي غير مقصود في الآية، أما ظل المعنى فهو أنه يبالغ في الإعراب عما في النفس وفي الإجابة ودرء الشبهات أثناء جداله الكفار، وذلك لزيادة فصاحته، وإلا لما قال موسى: " وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءاً "، ولفظ (ردءاً) معناه (معيناً) في الحجة والبرهان، والترتيب بين ردءاً ويصدقني يوضح المعنى المقصود، أي: ليوضح ما أقول ويبطل شبهاتهم فيظهرَ صدقي .

قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (القصص 38) .

---

(1) انظر: البحر المحيط 108/7 .

(2) انظر: البحر المحيط 115/7 .

كان فرعون يدعى لنفسه صفة الألوهية وقد أصر على هذا الرأي ولم يعترف بإله غيره ولذا قال (لعلى أطلع إلى إله موسى): ﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ [1]، عندئذ أدرك أن هذا الزعم غير حقيقي وأن إله موسى استطاع أن يورده مورد التهلكة، ولكنه عندما أراد أن يعبر عن ذلك لم يجد من المفردات ما يعبر عن ألوهية هذا الإله إلا أنه إله موسى أو الذي آمنت به بنو إسرائيل، ولم يرد أن يذكر الله جل جلاله وما سمعه من موسى عن صفاته، وهذا يجعل للمعنى ظلاً خاصاً [2].

قال تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنْ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ (القصص 76).

ذكر المفسرون من أنواع (البغي) الكفر والكبر وحسده لموسى على النبوة ولهارون على الذبح والقربان، وبخصوص (الكنوز) قيل إن الله أظفره بكثر من كنوز يوسف، وقيل صارت أمواله كنوزاً، إذ كان ممتنعاً من أداء الزكاة، والمراد بالمفاتح كثرة المفاتيح وهو الظاهر وأن تنوء العصبة بحملها ولكنها تعنى الخزائن والكنوز الكثيرة، وقيل المراد من المفاتح العلم والإحاطة كقوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ﴾[3]، والمراد وآتيناه من الكنوز ما إن حفظها والاطلاع عليها ليثقل على العصبة، أي هذه الكنوز لكثرتها واختلاف أصنافها يتعب حفظها القائمين عليه[4].

ثانياً : دلالة العلاقة النحوية والقرينة على ظل المعنى :

قال تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ (القصص 8) .

اللام في قوله تعالى (ليكون) هي لام الصيرورة والمآل وتسمي لام العاقبة، حيث آل التقاط موسى وتربية فرعون له إلى كونه عدوّاً لفرعون وأهله، وما كان التقاطهم له إلا

---

(1) يونس 90 .
(2) انظر: ظلال المعاني في القرآن الكريم، للدكتور / تمام حسان 5 .
(3) الأنعام 59 .
(4) انظر: البحر المحيط 132،131/7 .

للتبني وليكون حبيباً لهم، " وأنكر البصريون ومن تابعهم لام العاقبة قال الزمخشري والتحقيق أنها لام العلة وأن التعليل فيها وارد عن طريق المجاز دون الحقيقة وبيانه أنه لم يكن داعيهم إلى الالتقاط أن يكون لهم عدوا وحزنا بل المحبة والتبني غير أن ذلك لما كان نتيجة التقاطهم له شبه بالداعي الذي يفعل الفعل لأجله، فاللام مستعارة لما يشبه التعليل " [1]، وعلى الرأي القائل إن اللام هي لام الصيرورة تكون قرينة المعنى النحوي أو المعنى الوظيفي هي الدليل على ظل المعنى، فاللام حرف من حروف المعاني، وإحدى وظائفها الدلالة على المآل والعاقبة، كدلالتها على الجر والتعليل وغيرهما، فالمعني الظاهر في الآية أن فرعون وآله التقطوه ليكون لهم عدوّاً وظل هذا المعنى أنهم التقطوه ليكون حبيباً وقرة عين لهم فآل هذا الالتقاط إلى كونه عدوّاً، ودل على ذلك اللام ومعناها الوظيفي في الجملة، وإذا نظرنا إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ نجد أن المعنى لا يحتاج إلى التأكيد بقدر احتياجه إلى التعليل، فلماذا آل الأمر إلى خلاف ما تمنى فرعون وأهله ؟ والجواب: لأن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين، فقد حلت (إنّ) محل (لأنّ) في الآية وأدت دورها في الكلام، ويقال إن في الآية معاقبة[2]، حيث عاقبت (إن) (لأن)، فكانت هذه المعاقبة قرينة على ظل المعنى، أي أن المعنى توكيد وظله تعليل، وقرينة المعاقبة هي الرابط بين المعنى وظله .

قال تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ (القصص **12**) .

من المعروف أن (قبل) و(بعد) يبنيان على الضم إذا حُذفَ المضاف إليه وقُصدَ معناه دون لفظه، ولكن ما المضاف إليه المحذوف في الآية؟، هل حُرِّمَتْ على موسى المراضع من أول الأمر، أو من قبل أن تقص أخته أثره ؟ فالمعنى غير واضح من ظاهر اللفظ، وله ظلان لا ندري أيهما المقصود؟ ولكن بقرينتي الحال والسياق نفهم أن ظل المعنى هو تحريم المراضع من قبل القص لا من أول الأمر، فلا جدوى من تحريم المراضع من أول الأمر وموسى مع أمه ترضعه وتحنو عليه (قرينة الحال)، ويدل على ذلك قوله تعالى:

---

(1) مغنى اللبيب 179/1 .

(2) المعاقبة هي صلاحية عنصر لغوي أن يحل محل عنصر لغوي آخر ويؤدي دوره في الكلام، وهي نوع من العلاقات الرأسية الاستبدالية التي تؤدي إلى التوسع في اللغة، انظر: الخلاصة النحوية للدكتور/ تمام حسان 34، والمعاقبة في نظام النحو العربي، رسالة دكتوراه مخطوطة للباحث/ كلية الآداب بقنا 2004م .

"وقالت لأخته قصيه " في الآية السابقة، ومن هنا كانت القرائن دالة على المعنى وظله في الآية .

قال تعالى: ﴿ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ (القصص 28) .

أي ذلك عهد بيني وبينك، ويفهم المعنى بقرينة السياق، ففي النص عرض وطلب بين طرفين، وبارتضاء هذين الطرفين يتم العقد أو الميثاق ويوضحه قول الله تعالى: " والله على ما نقول وكيل "، ووكيل في الآية ليست من الوكالة، وإنما هي بمعنى شاهد، أي شاهد على ما تعاهدنا عليه وتواثقنا، فوكيل هنا ضمنت معنى شاهد، ولما ضمنت معنى شاهد تعدت بحرف الجر (على)، فالتعدية كشفت عن أن المعنى المقصود ليس هو الوكالة، وإنما هو الشهادة فأشارت بذلك إلى ظل المعنى[1] .

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِه آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَاراً قَالَ لأَهْلِه امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنْ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ (القصص 29).

أي الأجلين قضى موسى؟ وقد خيره شعيب بين أجلين عندما قال: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَةَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ﴾ (القصص 27) .

جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أن موسى عليه السلام وَفَّي أطول الأجلين وهو العشر[2]، ولم يكشف ظاهر النص عن المعنى المقصود، وعرف المعنى بقرينة خارجية هي السنة المطهرة .

قال تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِه وَيَقْدِرُ لَوْلا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ (القصص 82) .

(وى) عند سيبويه والخليل اسم فعل مضارع بمعنى أتعجب وكأن للتشبيه والمقصود غير ذلك، لأن المقصود أن تكون الكاف خالية من معنى التشبيه وتأويل ذلك أن تكون

---

(1) انظر: البحر المحيط 115/7 .
(2) انظر: البحر المحيط 115/7 .

(وى) في (ويك) للتعجب والكاف حرف خطاب، أو (ويكأن) حرف واحد بجملته وهو بمعنى ألم ترو، وقال الفراء ويك في كلام العرب كقول الرجل أما ترى إلى صنع الله[1]، وهو ظل المعنى المقصود في الآية .

قال تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنْ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (القصص 77) .

الكاف حرف يفيد التشبيه، والتشبيه غير مقصود في الآية وظله إما التعليل أي وأحسن ليحسن الله إليك أو السببية أي أحسن فيحسن الله إليك[2].

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ﴾ (القصص 17) .

الباء للقسم أي أقسم بما أنعمت به على من المغفرة لأتوبن فلن أكون ظهيراً للمجرمين أو متعلقة بمحذوف والتقدير اعصمني بحق ما أنعمت على من المغفرة فلن أكون إن عصمتني ظهيراً للمجرمين[3] .

ثالثاً : دلالة الاستفهام الإنكاري على ظل المعنى :

إذا كان الاستفهام الإنكاري مبدوءاً بحرف النفي فإن ظل المعنى هو الإثبات أو الأمر أما إذا كان الاستفهام الإنكاري بغير حرف النفي فإن ظل المعنى هو النفي أو النهي[4]، وجاء في سورة القصص :

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (القصص 57). أي لقد مكنا لهم حرماً آمنا، فالمعنى استفهام وظله إثبات .

قال تعالى: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ (القصص 60) .

أي اعقلوا، فالمعنى استفهام وظله أمـــر وغرضه " توبيخ في كونهم أهملوا العقل في العاقبة " [5] .

---

(1) انظر: البحر المحيط 134/7 .
(2) انظر: البحر المحيط 133/7 .
(3) انظر: البحر المحيط 109/7 ، 110 .
(4) ظلال المعاني في القرآن الكريم للدكتور/ تمام حسان 3 .
(5) البحر المحيط 127/7 .

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً﴾ (القصص 78) .

أي ليعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه، فالمعنى استفهام، وظله أمر.

قال تعالى: ﴿فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ (القصص 62).

الاستفهام الإنكاري بغير حرف نفي، وظله النفي، أي لا شركاء لي .

قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ الْمُحْضَرِينَ﴾ (القصص 61) .

المعنى استفهام، وظله نفي أي لا يستوي من وعدنـــاه وعداً حسناً مع من متعناه فيحضر يوم القيامة إلى النار .

رابعاً : دلالة السؤال المطروح خارج النص على ظل المعنى :

قال تعالى: ﴿ وَلا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمْ الْمُجْرِمُونَ ﴾ (القصص 78) .

السؤال: كيف ذلك واليوم يوم حساب؟! والجواب الذي يسعى إليه السؤال نجده في سورة الرحمن: " يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام "[1] .

قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُوناً فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمْ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ (القصص 45) .

السؤال: كيف يتصل قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُوناً﴾ بقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ (القصص 44)؛ ومن أي جهة يكون استدراكاً له ؟

معناه ولكنا أنشأنا بعد عهد الوحي إلى عهدك قروناً كثيرة فتطاول على آخرهم العمر وهو القرن الذي أنت فيهم.

أي اندرست العلوم فوجب إرسالك إليهم فأرسلناك وكسبناك العلم بقصص الأنبياء وبقصة موسى عليه السلام[2] .

---

(1) سورة الرحمن 41 .

(2) البحر المحيط 122/7 .

قال تعالى: ﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ ﴾ (القصص 26) .

السؤال: لِمَ وصفته بالقوة والأمانة ؟ والجواب: أنها وصفته بالقوة لأنه رفع صخرة البئر وحده وزاحم بمفرده قوماً حتى غلبهم على الماء، ووصفته بالأمانة لأنه حين قام يتبعها هبت الريح فلفت ثوبها فوصفتها فقال كوني ورائي ودليني فإني رجل لا أنظر إلى أدبار النساء[1]، هذا والقوة والأمانة هما الصفتان الملائمتان لحالهم، فالأب شيخ كبير يحتاج إلى القوة في مقابل الهرم، ولديه ذرية من البنات، الأمر الذي يتطلب قوة للحفاظ عليهن، وأمانة في التعامل معهن، وهذا من ظلال المعاني في السورة .

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنْ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (القصص30)، وفي سورة طه: ﴿نُودِيَ يَا مُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ [2]، وفي النحل: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [3].

السؤال: هل في ذلك منافاة ؟ والجواب: " لا منافاة في ذلك إذ حكي في كل سورة بعض ما اشتمل عليه ذلك النداء والجمهور على أن الله تعالى كلمه في هذا المقام من غير واسطة "[4].

خامساً : قد يكون التركيب إخباراً وظل المعنى إنشاءً .

قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ (القصص 58) .

المعنى إخبار بكثرة إهلاك القرى أما ظل المعنى فهو تخويف وتهديد لأهل مكة من سوء عاقبة قوم كانوا في مثل حالهم من إنعام الله عليهم بالرقود في ظلال الأمن وخفض العيش فقابلوا النعمة بالبطر فدمرهم الله وخرب ديارهم[5] .

قال تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (القصص 84) .

---

(1) البحر المحيط 114/7 .
(2) طه 11، 12 .
(3) النمل 8 .
(4) البحر المحيط 117/7 .
(5) انظر: البحر المحيط 126/7 .

الكلام معناه الخبر، وظله الشرط، أمـــا قولـــه تعالى في نفس الآية: ﴿فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فمبني الجملة على صورة النفي ومعناها الإثبات، أي يجزي الذين عملوا السيئات ما كانوا يعملون، وهو ما يسمي في النحو الاستثناء المفرغ، ويتحقق معنى جملته بحـــذف كل من حرفي النفي والاستثناء، فالاستثناء معناه إخراج ما بعد (إلا) في الحكم، أو نفي الحكم عن المستثني وإثباته للمستثني منه، وعندما يدخل حرف النفي على هذا التركيب يبطل عمل (إلا) ويتحول الأسلوب من النفي إلى الإثبات إذ إن نفي النفي إثبات، ومثله قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ (القصص59)، أي لقد أهلكنا القرى لأن أهلها ظالمون، أو حال كونهم ظالمين .

سادساً : دلالة الكناية على ظل المعني :

قال تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنْ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ (القصص 76) .

المفاتح كناية عن الخزائن والكنوز الكثيرة .

قال تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (القصص 10) .

الربط على القلب كناية عن قراره واطمئنانه، حيث شُبِّـــهَ القلب بشيء يُربط مخـــافة الانفلات [1] .

قال تعالى: ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ (القصص 23) .

ظاهر المعنى أنه إخبـــار بكبر الأب وشيخه، وإنما المقصود هو المعنى الثاني أو معنى المعنى، الذي يترتب على هذا الكبر، وهو عدم القدرة على السقي، فالكبر والشيخ كناية عن عدم القدرة على القيام بمهام السقي ومباشرته إياه بنفسه، وللمعنى الظاهر ظلال أخرى، فهو " اعتذار لموسى عن مباشرتهمـــا السقي بأنفسهما، وتنبيه على أن أباهما لا يقدر على السقي لشيخه وكبره ، واستعطاف لموسى في إعانتهما "[2].

---

(1) انظر: البحر المحيط 107/7 .

(2) انظر: البحر المحيط 113/7 .

قال تعالى: ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنْ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ﴾ (القصص 32) .

(واضمم إليك جناحك) كناية عن أنه في موقف خوف وفزع، فمن شأن الإنسان إذا ضم عضده، وذراعه وهو الجناح إلى جنبه وقت الفزع أن يخف بذلك فزعه، ويقوى قلبه، وقيل مجاز يراد بضم جناحه إليه تجلده وضبط نفسه وتشدده عند انقلاب العصا حية حتى لا يضطرب ولا يرهب استعارة من فعل الطائر لأنه إذا خاف نشر جناحه وأرخاهما [1].

سابعاً : دلالة الإيماء على ظل المعنى :

قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنْ الشَّاهِدِينَ﴾ (القصص 44) .

وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ (القصص 46) .

يؤكد المولى سبحانه وتعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم أنه يتلقى الأخبار عن الوحي، إذ لم يكن موجوداً زمن موسى عليه السلام، والمعنى لما اندرست العلوم وجب إرسالك إلى قومك بعد انقضاء زمن موسى عليه السلام وكسبناك العلم بقصص الأنبياء، وبقصة موسى عليه السلام .

ثامناً : دلالة الحذف على ظل المعني :

قال تعالى: ﴿وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ * وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنْ الْمُرْسَلِينَ﴾ (القصص 6،7) .

عندما علا فرعون في أرض مصر جعل أهلها شيعاً، واستضعف طائفة منهم، فراح يذبح أبناءهم، ويستبقي بناتهم أحياء للخدمة، ووضعت موسى أُمُّهُ في هذا الزمن (زمن الذبح) وخافت عليه، فأوحي الله إلى أم موسى أن أرضعيه، ولم تشر الآيات إلى وضع

---

(1) البحر المحيط 117/7 .

موسى عليه السلام ، وعُرِفَ المعنى بدلالة الحذف، وتقدير المحذوف (ووضعت موسى أُمُّهُ زمن الذبح وخافت عليه)، ودل على المحذوف من السياق الهاء في (أرضعيه، وألقيه، ورادوه) فهي عائدة على موسى عليه السلام، ولا حذف إلا بدليل .

قال تعالى:﴿وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنْ الْمُرْسَلِينَ* فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ (القصص 7،8) .

ثمة كلام محذوف بين هاتين الآيتين تقديره: ففعلت أم موسى ما أُمرت به حيث أرضعته وألقته في اليم فالتقطه البحر ثم التقطه فرعون، ودل على المحذوف قوله تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ﴾، فلو لم تكن أم موسى قد أرضعته وألقته في اليم لما التقطه آل فرعون من هذا اليم .

قال تعالى: ﴿وَقَالَتْ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ (القصص 9) .

أي وهم لا يشعرون أنهم يرتكبون خطأ كبيراً في التقاطه، ولا يشعرون أن الأمر سيئول إلى خلاف ما تمنوا، فقد التقطوه ليكون حبيباً وقرة عين لا ليكون عدوا وحزنا.

قال تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (القصص 10) .

أي: وأصبح فكر أم موسى فارغاً من العقل لمَّا بلغها أن موسى وقع في يد فرعون، ودليل الحذف قوله تعالى: ﴿لَوْلا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا﴾، فالربط على القلب كناية عن اطمئنانه واستقراره بعد الفزع والخوف حيث شُبِّهَ القلب بشيء يُربط مخافة الانفلات، وفي الآية حُذِفَ معمول الفعل (تبدى): أي لتبدى القول به، ومعنى القول أنها كادت تصبح: وا ابناه عند إلقائه في اليم، فالفعل (تبدى) فعل متعد بنفسه، وبمزاولة إعراب الجملة اتضح المفعول به المحذوف، فدل بذلك على ظل المعنى .

قال تعالى: ﴿وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ (القصص 11) .

أي وقالت لأخته قصيه، فقصت أثره فأبصرته عن بعد بنظرات مختلسة، ودل على المحذوف قوله تعالى فبصرت به، فلو لم تكن قد قصت أثره لما أبصرته .

قال تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ * فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾(القصص 12، 13).

بين الآيتين كلام محذوف فبعد أن عرضت أخت موسى على أهل فرعون أن تدلهم على أناس يكفلونه مرت بهم وبه إلى أمه فرده الله إليها، ولما حُذف الجزء الأول (فمرت بهم وبه إلى أمه) صُـرّحَ بلفظة (أم) بدلاً من الضمير فقيل فرددناه إلى أمه[1]، ولو كان الكلام المحذوف مذكوراً في الآية لقيل (فرددناه إليها) .

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا﴾ (القصص 14، 15) .

أي: آتيناه حكماً وعلماً فجاهر فرعونَ وقومه بما يفعلون وكانوا يكرهون المجاهرة بظلمهم، فأخرجه فرعون من المدينة فاختفي وغابَ عنها سنين ثم عاد فدخلها .

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنْ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ * فَسَقَى لَهُمَا﴾ (القصص23، 24) .

من القواعد الأصولية في النحو العربي أنه لا حذف إلا بدليل " فإذا كان في الفعل دلالة على المفعول به حَسُنَ حذف المفعول به دفعاً للإطناب"[2]، فإذا نظرنا إلى هاتين الآيتين وإلى أفعال السقي والإصدار والذود فيهما وجدنا أن المفعول به لكل منها محذوف وتقديره (الغنم) فاكتفي النص بذكر الأفعال ولم يذكر مفعولاتها دفعاً للإطناب، فغير مقبول من ناحية البلاغة أن يقال: ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون الغنم ووجد من دونهم امرأتين تذودان الغنم قال ما خطبكما قالتا لا نسقي الغنم حتى يصدر الرعاء الغنم وأبونا شيخ كبير فسقي لهما الغنم .

قال تعالى : ﴿ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (24) فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ ﴾ (القصص 24،25).

---

(1) انظر: البحر المحيط 108/7 .

(2) ظلال المعاني في القرآن الكريم، للدكتور/ تمام حسان 4 .

في الآية حذف تقديره: فسقي لهما ثم تولى إلى الظل، وذهبتا إلى أبيهما ثم قصتا عليه ما حدث معهما من أمر السقي ومن أمر الذي سقي لهما فأمر أبوهما إحداهما أن تدعوه له فجاءته إحداهما لتدعوه .

قال تعالى: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلا تَخَفْ إِنَّكَ مِنْ الآمِنِينَ * اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ (القصص 30 ،31) .

لما انقلبت العصا حية فزع موسى عليه السلام واضطرب فاتقي هذه العصا التي صارت حية بيده كما يفعل الإنسان الخائف من الشيء ثم ولي مدبراً ولم يعقب فخاطبه ربه " أقبل ولا تخف إنك من الآمنين اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء "، وقوله تعالى (تخرج بيضاء) دليل على أن اليد اعتراها تغيير أو أمر عارض يستوجب محوه، وهي المعجزة الثانية من معجزتي موسى عليه السلام العصا واليد .

ومن ظل المعنى في سورة القصص قوله تعالى :

﴿وَلا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ (القصص 87) .

ظاهر التركيب أن النهي متوجه إلى المشركين حيث باشر حرف النهي (لا) الفعل المضارع المتصل بواو الجماعة المحذوفة لالتقاء الساكنين فأصل الفعل (يصدون)، أريد توكيده بنون التوكيد الثقيلة فأصبح (يصدونَنَّ) ولتوالى الأمثال حذفت نون الفعل لدلالة المعنى الوظيفي (الأفعال الخمسة) عليها، ولأن نون التوكيد موضوعة لغرض بلاغي فالتقي ساكنان واو الجماعة والنون الأولى في نون التوكيد الثقيلة، فحذفت الواو ودَلّ عليها ضم الدال، ولما دخلت (لا) على الفعل فُهِم من الظاهر أن النهي متوجه إلى المشركين، والأمر غير ذلك ، فالنهي متوجه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، حيث ينهاه رب العزة عن طاعة المشركين، أي ولا تجعلهم يصدونك عن آيات الله بعد إذ نزلت إليك، ولو كان النهي متوجهاً إلى المشركين لما قال الله تعالى: ﴿فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكَافِرِينَ﴾ (القصص 86) و﴿وَلا تَكُونَنَّ مِنْ الْمُشْرِكِينَ﴾ (القصص 87) .

وفي قوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَى وَالآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (القصص 70) .

اشتهر في تفسير الأولى والآخرة، أن المقصود بالأولى هو الحياة الدنيا وأن المقصود بالآخرة ما بعد الموت، وهذا غير مقصود في الآية ، فالمقصود بالأولى قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمْ الْخِيَرَةُ﴾ (القصص 68) وتتمثل الآخرة في قوله سبحانه: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ (القصص 69)، فالخلق والعلم داعيان من دواعي حمده تعالى [1] .

الخلاصة:

هكذا يتضح أن دراسة المعنى وظله ليست حكراً على منهج النقد الأدبي ولا على علم البلاغة، وإنما ترتبط نوع ارتباط بالدراسة المنظمة للغة[2]، فقد كشفت المعاني الوظيفية لبعض المباني والعلاقات النحوية للتراكيب عن ظلال المعاني في سورة القصص، وأسهمت القرائن سواء أكانت خارجية (من خارج النص) أم داخلية من بين السياق في الإعراب عن كثير من هذه الظلال، ولقد عنى البلاغيون بما وراء الصياغة اللغوية، والمتأمل في موضوع علم المعاني يجده ذا صلة وثيقة بالدراسات النحوية لأنه يفرق بين أضرب الخبر وصور الإسناد الخبري، وخروج الكلام على خلاف الظاهر، والتفريق بين الحقيقة والمجاز، أما علم البيان فتتضح ظلال المعاني فيه من خلال الحديث عن لازم المعنى، والتضمين، والاستعارة، وعندما عرَّف علماء البلاغة الاستعارة قالوا هي نقل اللفظ من معناه الأصلي إلى معنى آخر لعلاقة ما مع وجود قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي وهو نوع من ظلال المعاني، ويهتم علم البديع بتحسين الكلام ومطابقته لمقتضى الحال، ومن ظلال المعاني في علم البديع المحسنات المعنوية، وقد اشتمل نص سورة القصص على مجموعة من ظلال المعاني على مستوى البلاغة تمثلت في الكناية والمجاز في قوله تعالى: ﴿رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا﴾ (القصص10)، ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ (القصص23)، ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾ (القصص32)، هذا وقد أسهم التناص في الإبانة عن ظلال المعاني في السورة، سواء أكان التناص بين آيات سورة القصص، أم بينها وبين آيات في سور أخر من القرآن الكريم، فتوضيح قوله تعالى: ﴿وَلا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمْ الْمُجْرِمُونَ﴾ (القصص78) وجدناه في سورة الرحمن في قوله تعالى: ﴿يُعْرَفُ

---

(1) انظر: البيان في روائع القرآن 301/1 .

(2) انظر: ظلال المعاني في القرآن الكريم ، للدكتور / تمام حسان 10 .

الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ﴾ (الرحمن 41)، والحذف أسلوب من الأساليب البلاغية، التي تهدف إلى تجنب الإطناب، أو تجنب التصريح بالمحذوف لغرض ما أو لقرينة مانعة، ويستدل على المحذوف بالقرائن والأدلة فلا حذف إلا بدليل، وقد كان لدلالة الحذف على ظل المعنى صور وأشكال كثيرة في سورة القصص، ولا شك أن الوصول إلى ظلال المعاني في السورة باعتبار كل هذه المستويات أفيد منه إذا عمدنا إلى مستوى بعينه واستدللنا من خلاله على ظل المعنى .

أهم النتائج :

- تمثل فكرة (نحو النص) في رأي المنبهرين بالفكر الحداثى الغربي إنجازاً من إنجازات هذا الفكر الحداثية، والحق أن هذه الفكرة موجودة في الفكر العربي وتتمثل في مجموعة متفرقة من الأفكار هي النظم والتناص والمقام، ومعاني الجمل والتراكيب، بالإضافة إلى القرائن والأسلوبية في العصر الحديث، ولو قدر لواحد من أبناء العربية أن يدمج كل هذه الأفكار في بوتقة واحدة لخلص إلى هذه الفكرة ، هذا وقد انقطع الفكر اللغوي والبلاغي فيما بعد عبد القاهر الجرجاني الذي طور إنجازات البلاغيين قبله في نظرية النظم الشهيرة التي تضاهي بحق ما وصل إليه الحداثيون الغربيون، مع مراعاة الفارق الزمني بين عبد القاهر والحداثيين الغربيين، ولو تواصل الإبداع والإنتاج الفكري بعد عبد القاهر مباشرة لوصل إلينا سلسلة من النظريات تتفوق على ما أنتجه الفكر الحداثي الغربي وتتقدم عليه بمئات السنين .
- ظل المعنى يعبر عن استدلال مجموعة من المعاني لتركيب واحد في حين يعبر ظل النص عن تعدد مجموعة من الألفاظ والتراكيب لمعنى واحد فالأول هو تعدد المدلول للدال، والثاني هو تعدد الدال للمدلول، والأول يخص المتلقي، والثاني يخص المبدع إذا كان المتلقي سلبيّاً، فإذا كان ناقداً أو مبدعاً فإن ظل النص يخص المبدع والمتلقي كليهما .
- الوصول إلى ظلال معاني النص من خلال تضافر جميع مستويات الدرس أفيد من التوجه نحو مستوى في حالة انفراد لنستدل من خلاله على ظل المعنى .
- ظلال المعاني تجعل المبدع يبتعد عن لغة الإخبار، واستعمال اللفظ على حقيقته، إلى لغة تتعدد فيها الدلالة مما يخلق نوعاً من المشاركة بين المبدع والمتلقي حيث يُعمل المتلقي فكره وينعم نظره لسبر أغوار المعنى، كما تمكن ظلال المعاني المبدع من

استخدام تراكيب غير إخبارية تقيس مدى قدرته على توظيف التراكيب وتنوعها، وهذه التراكيب بما لمعانيها من ظلال تجذب المتلقي ليشارك المبدع في فهم آليات النص وأسرار بلاغته للوصول إلى ما وراء المعنى الظاهر .

- مصطلح (ظل المعنى) أنسب للتعبير عن دلالات ما وراء الصياغة اللغوية من مصطلحات (معنى المعنى)، و(الحقيقة والمجاز)، و (المعاني الأول والثواني)؛ لما بين المعنى وما وراءه من ملازمة يصعب معها الفصل بينهما، هذا ويؤخذ في الاعتبار أن ظل المعنى ألصق بالمعنى في بعض التراكيب منه في بعضها الآخر، فعندما نقول (ما جاء إلا أحمد) يُفهم على الفور – وعلى الرغم من وجود النفي – أن أحمد قد جاء ومجيئه مؤكد، ويكون الإثبات ظلاً للنفي مع الاستثناء، ويُفهم ذلك بقرينة التركيب النحوي أي كلما مَرَّ بنا تركيب مماثل لهذا التركيب فُهِم أن ظله الإثبات. وليس الأمر كذلك مع الكناية أو المجاز، حيث نتوصل إلى ظل المعنى مروراً بعدة معان، أي أن ظل المعنى يحتاج إلى إعمال فكر للوصول إليه، حيث توجد مسافة زمنية فاصلة بين المعنى وظله المقصود .

*** *** ***